الفصل الخامس

الثقافة

الثقافــة

تعريف الثقافة

الثقافة -كما نرى- أقدم التعريفات[1] هي ذلك المجموع المعقد الشامل من المعارف، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، وغير ذلك من جميع الاستعدادات والعادات التي يكتسبها الإنسان بما هو عضو داخل مجتمع ما.(روبارتروسيبرياني، ماريا مانسي، ١٩٩٩، ١٤١)

وبهذا المعنى تمكننا الثقافة من دراسة قوانين الفكر، وأفعال البشر بوصفها داخلة في عمق بنية الشخصية، وبوصفها غير قابلة -بأية حال من الأحوال- للإقصاء، فهي على حد تعتبر سيبرياني ومانسي تعاشر البشر بشكل لصيق حتى وإن لحقها منهم عنف أو سوء استعمال الثقافة. إذن، المصدر الرئيسي للمعايير التي توجّه السلوك على المستوى الاجتماعي والفردي.

الثقافة والأيدولوجيا

وإذا كانت الثقافة تتكوّن من المعايير التي تشكّل توجُّهًا عامًّا للمجتمع يضبط سلوكه في اتجاه معين، فإن الإيديولوجيا[2] هي مجموعة من القيم والمبادئ والأفكار التي تشكّل في مجموعها اتجاهًا عامًا يتبنّاه النظام الاجتماعي والسياسي تجاه قضايا ذات أهمية من الثقافة إذا نظرنا إليها من منظور تاريخي، فهي عادة تهتم بالتفاعلات المعاصرة توجهها لكي تسلك

---

[1] وهو تعريف الأنثروبولوجي الإنجليزي الشهير Tylor والذي يعتمد عليه الكثيرون اليوم، والوارد في كتابه الحضارة البدائية promative cuture والذي صدر عام ١٨٧١م

[2] لفظ الأيدلوجيا مردود إلى القرن التاسع عشر، وعلى التخصيص إلى الفيلسوف الفرنسي دستودي تراسي (١٧٥٤ – ١٨٣٦) فهو واضع لفظ Idelogie، والمقطع الأول منه يعني الفكرة، والمقطع الثاني يعني العلم فتكون الترجمة الحرفية علم الأفكار، وقد قصد تراسي من ابتداع هذا اللفظ تحليل الأفكار من أجل الكشف عن طبيعتها، ومصدرها وقد تبني فلاسفة الثورة الفرنسية هذا المصطلح من أجل مقاومة السلطة الدينية التي كانت تساند الطبقة الإقطاعية وأطلق عليهم اسم الأيدولوجيين (مراد وهبة، ١٩٧٧، ٢٤٧ – ٢٤٨).

مسلكًا معيّنًا محددًا في إطار التاريخ والمستقبل. (على ليلة، مرجع سابق، ٦٩) ويقاس نجاح أية أيديولوجيا بما يحققه تطبيقها من آثار في حياة الشعوب، ولا يتوقّف هذا النجاح على ما يحرزه التطبيق من تنمية اقتصادية واجتماعية فقط، بل يقاس بقدر ما يقترن به التطبيق من مراعاة للقيم الإنسانية، واحترام لحرية الفرد وكرامته. (عادل عازر، ١٩٧١، ٥٤) وعمومًا فإن الحالة المثالية هي الحالة التي يحدث فيها اتساق ملائم بين مجموعة المعايير على المستوى الفردي من ناحية، وبين أيديولوجيا النظام السياسي والاجتماعي من ناحية ثانية، وبين ثقافة المجتمع وقيمه الناتجة عن التفاعل أو التي تعتبر امتدادًا للتراث من ناحية ثالثة، في حين أن الانفصال أو عدم الاتساق بين المستويات الثلاثة يؤدي إلى قيام ظواهر عديدة، وهي ظواهر يعاني منها كثيرٌ من المجتمعات الانتقالية والنامية، وقد تجاوزتها أبنية المجتمعات المتقدمة. (علي ليلة، مرجع سابق، ٦٥).

خصائص الثقافة:

تتميز الثقافة بمجموعة من الخصائص شأنها في ذلك شأن أية ظاهرة اجتماعية، فهي موجودة في أي مجتمع من المجتمعات، بدائيًا كان أم متحضِّرًا، قديمًا أم معاصرًا، وأي ثقافة في أي مجتمع تتصف بالخصائص التالية:

١ - مكتسبة

الثقافة لا يرثها الإنسان كما يرث لون عينه أو بشرته، بل يكتسبها بطرق مقصودة (بالتعلّم) أو عرضية من الأفراد الذين يتفاعل معهم ويعيشون حوله، منذ ولادته كأسرته وأقرانه وغيرهم من الذين يخالطهم.

٢ - انتقالية

الثقافة تراث اجتماعي يتعلمها ويتمثلها الفرد بصفته عضوًا في جماعة معينة، فهي تنتقل من جيل إلى جيل بوساطة عملية التنشئة الاجتماعية، ومن جماعة لأخرى، أو من مجتمعٍ لآخر بواسطة عملية التثاقف Acculturation.

٣- تراكمية

وهذا يعني أن الثقافة ذات طابع تاريخي عبر الزمن، فهي تنتقل من الجيل إلى الجيل الذي يليه، بحيث يبدأ الجيل التالي من حيث انتهى الجيل الأول، وهذا يساعد على ظهور اتساق بأنماط ثقافية جديدة.

٤- الثقافة أداة لتكيف الفرد مع مجتمعه

تعتبر الثقافة الأداة التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يتكيف بسرعة مع التغيّرات التي تطرأ على بيئته الاجتماعية، وتزيد أيضًا من قدرته على استخدام ما هو موجود في بيئته.

٥- تكاملية

الثقافة ذات طابع تكاملي، وهي مركّبة حيث تتكوّن من عناصر وسمات مادية وفكرية، تتجمع مع بعضها في نمط Pattern وأنماط الثقافة ترابط، وتتكامل مع بعضها بفضل بعض العناصر التجريدية التي يطلق عليها اسم موضوعات أساسية، أو تشكيلات Configuration ويقول كلاكهون (فأسلوب حياة كل جماعة هو عبارة عن بناء وليس مجرد مجموعة عشوائية من أنماط الاعتقاد، والسلوك الممكنة ماديًا، والفعالة وظيفيًّا، فالثقافة نسق تقوم أجزاؤه على الاعتماد المتبادل فيما بينها).

٦- واقعية

اعتبر كثير من العلماء الظواهر الثقافية كالظواهر الاجتماعية، وبالتالي فإنه ينبغي النظر إليها (كأشياء) مدركة موضوعيًّا، وتؤثر الظواهر الثقافية بعضها ببعض، كما تؤثر في السلوك الاجتماعي للأفراد في المجتمع.

٧- استمرارية

الثقافة ظاهرة تنبع من وجود الجماعة ورضاهم عنها، وتمسّكهم بها، ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، فهي بذلك ليست ملكًا لفرد معين، فهي لا تموت بموت فرد؛ لأنها ملك جماعي

وتراث يرثه جميع أفراد المجتمع، كما أنه لا يمكن القضاء على ثقافة ما، إلا بالقضاء على جميع أفراد المجتمع الذي يتبعها، أو إذابة تلك الجماعة التي تمارس تلك الثقافة بجماعة أكبر أو أقوى، ولا تفنى الثقافة إلا إذا انقرض المجتمع الذي يمارسها سواء بالقوة، أو الحرب، أو السيطرة، أو ظهور ثقافة جديدة من منطلق عقدي جديد قوي ومسيطر، وهذا أمر يصعب تنفيذه على أرض الواقع.

٨- إنسانية

الثقافة ظاهرة تخص الإنسان فقط لأنها نتاج عقلي، والإنسان يمتاز عن باقي المخلوقات بقدرة العقلية وإمكاناته الإبداعية، ولا يشارك الإنسان في هذه الظاهرة -الثقافة- أيٌّ من المخلوقات الحية، فتطوَّر الإنسان من المرحلة الرعوية إلى المرحلة الزراعية فالمرحلة الصناعية، وتعلم ممن سبقوه، وهو بدوره سينقلها للأجيال القادمة لأن الثقافة التي هي من صنع الإنسان لا تنتقل إلا من خلال الإنسان نفسه. (فهمي سليم الغزوي وآخرون، ١٩٩٧، ١٨٢- ١٨٥)

مكونات الثقافة

سبق أن ذكرنا أن مفهوم الثقافة من المفاهيم التي تشمل معاني وأشياء كثيرة، فهي تُمثِّل طريقة حياة المجتمع وبهذا تتكوّن الثقافة من جوانبَ تشمل جميع حياة الإنسان، يعرض لها إبراهيم عثمان (١٩٩٩، ص ص ١٦٥ - ١٧١) على النحو التالي:

١ - اللغة

الثقافة وتشكيلها وقيامها ترتبط بالضرورة بوجود نظام رمزي، يتيح للأعضاء الاتصال، والتفاعل، وتناقل المعاني، ويعتبر هذا النظام الرمزي وسيلة المجتمع التي تحدد معرفته بالبيئة بجوانبها وبالذات الإنسانية، فالرموز تعبيرات تدل على الأشياء والأشخاص والكائنات والمعاني، وتشكل في مجموعات نظام تعبير واتصال جماعي مشترك.

تشكل اللغة عادة أهم واجهة، ويعتبر هذا النظام بأشكاله من أهم الأوجه الثقافية والاجتماعية، بل يعتبر شرطًا مُسبقًا وضروريًّا لقيام المجتمعات والثقافات والذات والعقل.

هـذا النظـام ضروري لنقـل المعرفـة والمهـارات مـن جيـل إلى آخـر. وللاسـتفادة مـن خـبرة الآخرين، ولـتراكم المعرفة وتطويرهـا، وخلـق بعـدي الزمـان والمكـان عـلاوة عـلى أن إدراك وتصور الإنسان للبيئة وما فيهـا يتـأثر بـالأنماط اللغويـة، وبهـذا يـصبح تعبيرًا عـن المـدركات والتصورات، فإذا لم تتوفّر الرموز الدالة والمعبرة، فلن يكون هناك وجـود بـالمعنى الاجتماعـي (ص ١٦٥).

٢- القيم

القيم هي معانٍ وأفكار مجردة جماعية حول الخير والشر، والصحيح والخطأ، والمستحب والمكـروه، والمسموح والممنـوع، وهـي بـالطبع تمتـزج بأهـداف الجماعـة، وتـصبح مـن أسس التنشئة الاجتماعية وترتبط القيم عادة بالوجدان الإنساني، فهي مشحونة عاطفيًّا، ويتم ترتيبها حسب اعتقاد المجتمع بأهليّتهـا مـن حيـث اسـتمراريتها وانتـشارها ودرجـة الإجماع حولهـا، والحرص على التمسّك بها، وتشكّل في مجموع منظومتها الهرمية النظام القيمي للمجتمع، لا يعني هذا وجود تكامل قيمي، بل قد نجد تناقضًا قيميًا في المجتمع الواحـد كـالقول بتكـافؤ الفـرص، ثـم التميـز عـلى أسـاس الجـنس، وبوصـفها تعكـس ثقافـة المجتمـع، تمتـاز القـيم بالعمومية، وبأنها تشكّل أسسًا فكريّة عامة، مما يؤدي إلى تأثيرها في اتجاهات الأفراد وأفعالهم وطرق تفكيرهم (ص ١٦٦ – ١٦٧).

٣- المعايير

تُعبّر القيم عن الأهداف العامة وتقيم أسسًا موجهة للسلوك، أما المعايير فأكثر تخصصًا، فهي تـرتبط بـسلوك محـدد، وتمثـل القواعـد والمقـاييس الثقافيـة، التـي يجـب عـلى الإنـسان أن يأخذها بعين الاعتبار عندما يسلك أو يفكّر أو يعبر عـن شـعور في موقـف معـين، بهـذا تعتـبر المعايير منظمة للسلوك الاجتماعي، مما يجعلنا قـادرين عـلى اختبـار الـسلوك المقبـول اجتماعيًّـا وتوقّع سلوك الآخرين.. المعايير إذن مرتبطة بسلوك معين في موقف معين. تتحوّل المعايير في

بعض النشاطات مما يعتبره المجتمع مهمًا إلى أعراف -وهي قواعد اجتماعية أكثر حدة- ترتبط بدرجات أعلى من الجزاء والعقاب، وبما أن الثقافة في كلها متغيرة، فالمعايير يمكن أن تتغير، كما أنها تتباين بتباين المجتمعات، والجماعات. (ص ١٦٩ – ١٧٠).

٤ – المكانة

تشير إلى وضع في الجماعة والمجتمع، وتعتبر جزءًا من الثقافة؛ لأن ترتيب الإمكانات في أوضاع عموديًا مسألة تعتمد إلى حد كبير على تقييم الجماعة للأشخاص والأدوار وتعني مجموعة الحقوق والواجبات المرتبطة بهذا الوضع، ولكل مكانة في وضع اجتماعي معايير ترتبط بما يتوقع من شاغل المكانة. (ص١٧١)

٥ – النظم الاجتماعية

يمكن اعتبار النظم الاجتماعية مركّبات ثقافية يتضمن معناها مجموعة القيم والمعايير والمعتقدات والمكانات التي تشير إلى كيفية استجابة المجتمع مع القضايا والمسائل المركزية. (ص ١٧١)

تطور الأنماط الثقافية

يتحدث علماء الأنثروبولوجيا عن نوعين رئيسين من العمليات يحدثان إبان تطور الأنماط الثقافية.

العلمية الأولى: عملية النقل الثقافي Emculturation حيث تتصل عبر الأجيال العادات والتقاليد الثابتة، وتتولى الأسرة أو الجيل الأكبر عادة نقلًا غير رسمي لهذه العادات والتقاليد، وأثناء هذه العملية يميل البالغون إلى مكافأة الأطفال حين يمثّلون لما يطلب منهم من سلوك، وإلى عقابهم حين يحجمون عن هذا السلوك تمامًا، كما كان يفعل آباؤهم معهم عندما كانوا أطفالًا صغارًا.. إن بعض عناصر الثقافة ينقل أيضًا من طرف وكالات تنشئية غير الأسرة، مثل: المدرسة، دور العبادة، المؤسسة العسكرية، النوادي، الجمعيات (**محمد عودة الريماوي، ١٩٩٤، ٢١٤ – ٢١٥**)

العملية الثانية: عملية الإبداع الثقافي Innovation وهي العملية التي بواسطتها تضاف أفكار جديدة لثقافة الجماعة، إنها عملية التغير والتجديد، وهي مقابلة لعملية النقل الثقافي والتي توحي بالثبات والمحافظة؛ فالإبداع أو التجديد الثقافي يعني تبنّي أهداف، أو أفكار، أو أشكال سلوكية، ويمكن أن تتضمن أيضًا استعمال كلمة جديدة، تطوير رقصة معينة، استحداث نظام حكم جديد، استخدام وسائل حديثة كالكهرباء، الكمبيوتر...إلخ.

عملية الإبداع الثقافي تحدث بطريقتين؛ **الطريقة الأولى**: انتقال عناصر ثقافية لجماعات أخرى إلى ثقافة جماعة بعينها، كأن تنقل الطريقة الغربية في الأكل إلى العرب، أو ينقل استخدام الكمبيوتر من اليابان إلى دول أوربا الشرقية. **والطريقة الثانية**: هي الابتكار Invention، أي استحداث استجابات جديدة للبيئة الفيزيقية، والثقافية للجماعة من قبل أفراد الجماعة أنفسهم، ويتوقّع أن يحدث مثل هذا الابتكار بشكل خاص عندما تواجه الجماعة تحديات كبرى. (**المرجع السابق، ٢١٥ – ٢١٦**).